هل يكرر الحزب الشيوعي العراقي مواقفه ؟ !
الموقف من الغزو الأجنبي هو معيار وطنية أي تنظيم !
{1}

منذ الاجتياح الأمريكي ـ البريطاني للدولة العراقية رأينا تدفقاً للقوى السياسية ، أو المحسوبة على الموقف السياسي العراقي ، من التجار الوالغة أيديهم بدماء الشعب العراقي بحجج مختلفة جراء تحريضهم على الحرب ، على الساحة الجغرافية للوطن . منها ما أتى بمعية القوات الغازية للوطن والمحتلة للعراق ، وبعضُها تسلل للعراق بتسهيل أمريكي واضح ، وثالث اِنبثق عن إرثٍ سابق وسمَ الساحة العراقية . **ولكن الجميع لعب دوراً دعائياً في التهيئة للعدوان الأمريكي** ، والتبرير لحملة الغزو الهمجي الذي جعل العراق أسير الرؤية الأمريكية ، وبدء معاناته المريرة من وطأة الجزمات العسكرية الأمريكية المباشرة : القاتلة أو المذلة الثقيلة والمؤذية ، ورهن قدراته الاقتصادية لدى ((نظام القطب الواحد)) العالمي .

وإذا كان تحليلُ مواقفَ القوى السياسية التي وُلِدت تحت لواء ظلال عجاج عاصفة الصحراء في عام 1991 ، وسماد يورانيويها المخصب الذي أهلك الأرض وقتل الأطفال ، ونمت بأموال تبرعات السلطات السعودية والكويتية والأمريكية ، والترويج الغربي ــ كذلك ــ لأسمائها دعائياً ، لا يحتاج إلى دلائل وبراهين على مواقفها السياسية تجاه الوطن : كونها **هي** التي أعلنت عن نزوعها الحقيقي في مجالات ولائها للقوى المناهضة للوطن العراقي والمجتمع العراقي ، من خلال مجيئها محمولة على ظهر الآلة العسكرية للغزو الأمريكي ، وجرى تدريب ((شبانتها الجدد)) ــ تلك الشبانة القبلية/المرتزقة عسكرياً التي شكّلها الإنكليز قبيل ثورة العشرين ـ في معسكرات أجنبية ، تحت إشراف دولة الغزو الأساسية : أمريكا ، وتثقيفها فكرياً وسياسياً حول ما يُسمى : **إنَّ خلاص المجموع العراقي يتم فقط عبر ترجمة شعار التغيير من خلال الإسقاط على حساب شعار التغيير من خلال الحوار** .

وشعار الإسقاط كما أوضحنا من قبل [1] يقتضي جمع أموال الدعم من أعداء الدولة العراقية ، والبحث عن ((مكان)) للنشاط الدعائي ، والاستعانة بالقوة العسكرية العالمية الأساسية التي تُنجِز هذا الشعار ، **وهو مآل وضعها السياسي والتنظيمي الراهن** ، وتبرير كل ذلك بالعجز عن إتمام مهمتها ذاتياً . ومعلوم أنَّ ذلك لن يكون من غير وضع الدولة العراقية وأرضها على سكة التجزئة ومنحر التفتيت للمجتمع الذي يكونها ، **مُعلناً أو من دون إعلان** ، وهو الهدف السياسي للاِحتلال الأمريكي في المرحلة الراهنة . . . أمريكا التي كانت تعمل على أنْ يشعر الأتباع/الإمعات بالرضى ، وهي تضمن السيطرة عليهم في القضايا الجوهرية التي **تخدم مصالحها المرسومة نظرياً** ، من خلال التحكم بالعملية السياسة كلها ، وعبر السيطرة على حركة التقاطعات المركزية ، لمجمل تلك العمليات السياسية الفرعية التي ينبغي لها التكامل بما ينسجم مع توجهها السياسي إستراتيجياً ، وفق المفاهيم الأمريكية التي أفصحَ عنها زبغنيو بريجينسكي في مؤلفاته السياسية الهامة .

والمضمون الفكري والمهام التي أخذتها على عاتقها ـ لتلك القوى ـ هو الذي يحدد سماتها ، ذلك هو طبيعة القوى سياسياً ، يرتبط أساساً بالإستراتيجية الغربية الأمريكية في المرحلة الراهنة ، وهي كذلك أسيرة الرؤية الأمريكية على كل الصُعُد ، **لذلك لن ندخل معها في ميدان النقاش الفكري والسياسي** ، نظراً لرؤيتنا الفكرية والسياسية الواضحة إتجاه مجموع خياراتها في الماضي والحاضر والمستقبل ، التي عبَّرنا عنها مرات ومرات .

{2}

أما **القوة السياسية** التي نتطلع للحوار معها فهي التي توصِّف نفسها على إنها قوَّة وطنية ، وتستشهد بتاريخها ، وتبرر أفعالها الراهنة بمقولات متنوعة ، ومواقف مؤسسها ، فهي الحزب الشيوعي العراقي لأداء خدمة فكرية لعلها تصوب ممارساته ورؤيته المستقبلية . لقد قال ممثل عنها ـ مثلاً ـ السيد جاسم محمد القيادي في ذلك الحزب ، عضو لجنة العلاقات المركزية ، في ندوة تلفزيونية تبحث شؤون ((العراق بعد الحرب)) بثتها قناة ((الجزيرة)) القطرية بتاريخ 1 / 5 / 2003 التي يعدُّها السيد ماهر عبد الله : إنَّ الحزب هو قوة وطنية بالأساس ، دون أنْ يبين **مفهوم الوطنية** في اللحظة التاريخية الراهنة الذي يقع العراق فيها بيد القوات الأمريكية المحتلة . لقد إستطرد ممثل الحزب عن نشأة الحزب منذ لحظة تكونه تحت شعار/مفهوم ((عصبة مكافحة الإستعمار والإستثمار)) : أي الإستعمار الخارجي والإستثمار الأجنبي ، **وهو ما يواجهه العراق اليوم بصورة واضحة وملموسة** ، وهي قضية سياسية راهنة وجلية ، ألا يتناقض ذلك مع موقف الحزب الحالي عندما لم ينبس ببنت كلمة تجاه هذه الظاهرة الإحتلالية المتوضعة في العراق وتستجلب الثانية ـ أي الإستثمار ـ بالضرورة ؟ ! .

لقد تخلل طرحه السياسي الحديث عن كل القضايا التي تهم المواطن كالأمن والديمقراطية والسلم ، مصنِفاً حزبه ضمن التيار الديموقراطي في التركيبة السياسية العراقية ، **وهذا من حقه تماماً** ، ولكنه أقرن وجود تنظيمه منذ البداية بالقضية الوطنية العراقية ، التي إنتهكها الإحتلال العسكري الأمريكي البريطاني الراهن ، وفي ذلك تناقض واضح لا شك فيه ، **فالقضية الوطنية العراقية والإحتلال الأجنبي الأمريكي ـ البريطاني مفهومان متناقضان وملموسان ولا يلتقيان أبداً** ، لا في المبدأ الفكري التقدمي ولا في التحليل السياسي التاريخي ، **أولاً** . وأشار في سياق تلك الندوة إلى أنَّ الحزب الشيوعي الكردستاني بإعتباره معبراً عن الطبقة العاملة الكردية وجزءاً من الحركة الوطنية القومية الكردستانية ، فأين هو الوطن العراقي التي يعبر عن قضيته الديمقراطية الموحدة ، من خلال مفهوم الحزب الشيوعي العراقي ؟ ، ألا يشكل إنقسام الحزب الشيوعي العراقي إلى حزبين على أساس قومي ، الخلل المركزي في المفهوم الوطني العراقي الموحد والمفهوم الطبقي للعراق الواحد ؟ ، لماذا فرعان تنظيميان لحزب واحد لمجتمع واحد ذي قوميتين في دولة واحدة ؟ ، ألا يشكل ذلك برهاناً على إنبثاث روحية التجزئة فكرياً في عقل القيادة الحزبية ؟ وهل الحزب سيشكل فرعاً تنظيمياً ثالثاً للجنوب إذا ما عمد الوجود السياسي الأمريكي الإحتلالي إلى تقسيم العراق إلى ثلاثة أجزاء : شمالي ووسطى

وجنوبي ، كما يحلم المستعمر المحتل بغية القضاء على الدولة الموحدة ذات الطموح الوطني والقومي ؟ ، **ثانياً** .

عندما يسأل معُّد البرنامج ممثل الحزب عن شرعية الحزب التاريخية ، لا يجد السيد ممثل الحزب ما في حوزته الفكرية والسياسية سوى التاريخ : شهداء الحزب وتضحياته ، مع تجاهل واضح عن **المضمون الفكري** لتضحيات الشيوعيين طوال تاريخهم ؛ هل كانوا يضحون من أجل جلب القوات الأمريكية ــ البريطانية الغازية للوطن ؟ ، ولما ذا جرى تناسي فترة الصراع بين الإمبريالية الأمريكية بقيادة أمريكا ، من جهة ، وبين المنظومة الإشتراكية وعلى رأسها الإتحاد السوفييتي ، من جهة أخرى ، التي إستنفدت أكثر من نصف قرن من تضحيات الأعضاء والكوادر في سبيل قيمها : وعلى رأسها الاتحاد السوفييتي ، **من ناحية أولى** ؟ . ولماذا أغفل المتحدث عن شهداء الحزب الذين سقطوا صرعى الخلافات الداخلية ، أو الذين قتلهم جهاراً نهاراً الإتحاد الوطني الكردستاني في مجزرة بشت آشان ، **من ناحية ثانية** ، وهل يشكل عدم التطرق للذين سقطوا مضرجين بدمائهم خلف الرؤية الفارسية في الحرب ، موضوعياً على الأقل ، والقتال تحت راية مؤتمر الجلبي التنظيمي ، تمييزاً للدماء الزرقاء الفاسدة عن الدماء الحمراء النقية لشهداء الحزب من الذين سقطوا في مواجهة البعث طوال [35] عاماً كما قال ؟ ، التي كان ست سنوات فيها يشارك في قيادة السلطة البعثية للدولة ، ونظَّر للحزب الحليف ، من خلال الجبهة الوطنية التقدمية ، **من ناحية ثالثة** .

{3}

لقد تطرق ممثل الحزب إلى المهام السياسية المنوطة بحزبه في تلك الندوة أيضاً ، التي يتقدمها مكافحة ما خلفه النظام السابق وحكم الحزب الواحد الذي شوه الحياة السياسية نفسياً وإجتماعياً و[أخلاقيا ؟ !] والذي تسبب أيضاً في الحروب السابقة ، **دون أنْ يشمل العدوان الأمريكي ــ البريطاني الراهن بنقده الفكري أو السياسي بكلمة واحدة** ، ولو على سبيل التضليل السياسي أو الفكري . والإطناب الإيجابي حول المرحلة المتحررة والديمقراطية السياسية والحرية الحزبية التي **وفرها** ـ كما يبدو ـ الإحتلال الأمريكي ـ البريطاني التي ستجعل الإمكانية مفتوحة لممارسة دوره المأمول على صعيد تطبيق مفردات الحياة الحزبية ، والإستجابة لمتطلبات الرأي والرأي الآخر ، ومعالجة الإختلالات الناجمة عن حرمان الفرد من حق الإختلاف مع الآخر ، **التي نعتقد أنها لم تكن من الأسباب الحقيقية للعدوان العسكري الأمريكي ـ البريطاني** ، ما خلا كونها مبررات زائفة للحملة الدعائية للغزو والإحتلال .

ومما أعطى أحاديث ممثل الحزب الشيوعي العراقي الدلائل العملية على توجهه المقصود ذاك ، تلك الشعارات المرفوعة في مظاهرة الأول من أيار 2003 ، المناسبة التي تحتفل فيها الطبقة العاملة العالمية بعيدها الذي إنبثق أثر إضراب العمال في شيكاغو الأمريكية 1893 ، التي تركزت على الأمن والسلام والديموقراطية ، **وهي شعارات ــ كما نعتقد في الوقت الحالي ــ تخص بشكل أساسي أمن قوات الإحتلال وسلامتها وحرية إستغلالها لثروات العراق** . إذ كيف يتمتع مواطن بحقوقه وبلاده

محتلة عسكرياً ، من دون تحديد سقف مضمونها من قبل قوات الاحتلال وفي خدمته ، إذا أخذنا المفهوم العلمي للحرب بنظر الاعتبار الذي حدده كلاوتز فيتز ، الذي طالما ردده لينين في كتاباته التي تخصُّ موضوع الحرب ، كونها التجلي العنيف للصراع السياسي ؟ ! .

إنَّ كل ذلك يبرهن مرة أخرى على **أنَّ الجهد التحالفي** مع مؤتمر الجلبي الذي دافع عنه عضو اللجنة المركزية السيد هادي محمود عضو المكتب السياسي للحزب الشيوعي العراق في مجلة الثقافة الجديدة العدد 263 الذي تضمن العددين الرابع والخامس الصادر في عام 1995 [ص78 ــ 85] التي يصدرها الحزب ، **لم يذهب سُدى** . وإنَّ ((اللقاءات الخمسة مع المخابرات الأمريكية والبريطانية التي كان آخرها في عام 2001 على هامش اِجتماع المؤتمر الوطني في نيويورك)) والمجاملات الكثيرة للقنصل الأمريكي في العاصمة السورية الذي يفضل تناول ((شرب الشاي العراقي في مقرنا دورياً)) ولقاء أبو داوود سكرتير عام الحزب الشيوعي العراقي ((بريتشارد دوني في مكتبه بخارجية أمريكا عام 1998 وتطلعه لتحالف حزبه مع الإدارة الأمريكية بمعزل عن المؤتمر الوطني ، وطرح اِسمين من أجل صيرورتهما حلقة اِتصال معها)) ، وكذلك ((اللقاءات التي أجراها ممثل الحزب طوال أعوام 1999 - 2001 مع الخارجية الأمريكية)) [2] ، **قد أتت أكُلها تماماً** .

{4}

لقد اِستشهد ممثل الحزب بموقف السكرتير العام يوسف سلمان يوسف {فهد} الذي أعدمته السلطة الملكية في العراق بتاريخ شباط 1949 ، الذي قال أمام محاكميه ــ كما ينقل المتحدث ــ **: لقد كنت وطنياً قبل أنْ أكون شيوعياً** ، جراء صلابته الحزبية أساساً ، من أجل البرهنة على وطنية الحزب . ولكن **ماذا كان موقف فهد** من الاِحتلال البريطاني للعراق الذي نجم عن غزو قواتها له عام 1941 ، كما تنقل الوثائق عن إصدارات الحزب بالذات ، المماثل للاِحتلال العسكري الأمريكي ــ البريطاني في الوقت الراهن :

((فإنَّ حزبنا ينظر إلى الجيش البريطاني ، الذي يحارب النازية الآن ، **كجيش تحرير** ، وبكلمات أُخرى فإنَّ دعمنا للجبهة الديموقراطية العالمية الموحدة يعني أنْ نكون **إلى جانب** الإنكليز . . . ولذلك ، **فإنَّ علينا أنْ نساعد الجيش البريطاني** في العراق بكل طريقة ممكنة ، وأن نسهل **خصوصاً نقل المواد العسكرية** بواسطة السكك الحديدية ، **وأنْ نراقب المتآمرين والمخربين ونحترس** من حوادث مماثلة لما حصل مؤخراً من نسف لقطار الحلة)) [3] .

إنَّ قراءة الموقف الحاضر للحزب الذي دفع منظماته في الخارج لنشر عرائضه السياسية حول العدوان الأخير على العراق ، وتجنبها من ذكر موقف سياسي وطني حتى لو كان بشكل عرضي حول النزعة التسلطية لأمريكا في مرحلة عولمتها ، يدلِل على تكرار الموقف السياسي للحزب من الاحتلال الأجنبي ، بذرائع مختلفة . كما حدث في هولندا وفق العريضة المؤرخة في 11/ 2003/4 والتي تحمل اِسم الهيئة الإدارية للمنظمة العراقية للدفاع عن حقوق الإنسان في لاهاي بهولندا . وعندما قلتُ لحاملة العريضة التي طلبت إعطائي موقفي التضامني مع

رؤيتها الحزبية ، وذلك في مدينة دنهاخ يوم 13 / 4 / 2003 عندما تم اِلتئام ((المهرجان التضامني مع شعبنا العراقي وفلسطين)) : هل يعقَل أنْ تحتوي عريضة أفكاراً باِسم العراق وتخلو في الوقت ذاته من ذكر موقف واحد عن المعتدي الأمريكي أو البريطاني ؟ ، فمررتْ عينها على ورقتها لتتأكد حول صحة ما أقول ، وأشرت فقط على الجملة التي وردت جملة : يا من اِستطعتم على مدى التاريخ دحر المستعمر وفضح المؤامرات بأنفسكم أنتم)) لتقول إننا ذكرنا المستعمر ، فضحكتُ وسكتُ ، ولسان حالي يقول : **أوَصلَ التضليل بحق المواطن العربي إلى هذا الحد ؟** .

والبيان الذي أصدرته الهيئة التنفيذية لإتحاد الكتّاب والصحافيين العراقيين في المملكة المتحدة : بريطانيا ، اِستفز الحسَّ الوطني للشاعر العراقي سعدي يوسف فنشر توضيحاً في جريدة ((القدس العربي)) الغرّاء يوم 2003/4/30 جاء فيه : ((لقد نشر بيان موقّع من السيد فاضل السلطاني عن الهيئة التنفيذية وردت فيها عبارات مسيئة إلى الموقف العملي للشعب العراقي من الاحتلال مثل [الشعب العراقي زحف مع القوات الاِحتلال] كما يدعو البيان إلى : [التعامل مع الوجود الأمريكي والبريطاني على ضوء ما هو ملموس])) ورأى السيد يوسف التالي ((للسيد فاضل السلطاني أنْ يبدي رأيه الشخصي في ما يجري على الساحة السياسية العراقية ، حتى لو كان هذا الرأي يمالىء اِحتلال وطنه من جانب قوات أجنبية ، لكن اِستعانته بمنظمة وهمية ، وهيئة تنفيذية لها ، كي يحشر الكتّاب والصحافيين العراقيين ، في زاويته المعينة ، أمر كان ينبغي للرجل تجنبه ، حرصاً على شؤونٍ عدةٍ ، من بينها سمعته الشخصية))[4] . وربما غاب عن السيد يوسف ، إن ما هو مطلوب راهناً ، هو نقد الأصل المصدِّر لهكذا آراء، وليس فضح الزعانف التي تردد مقولات ذلك المركز الفكري . مثلما وفرت تلك العريضة التي صدرت زوراً باِسم الأدباء والصحفيين العراقيين ، ومناسبة الاِحتلال العسكري البغيض للعراق ، الفرصة **له** ولغيره أيضاً لمراجعة الماضي السياسي ، برؤية تاريخية تصطفي الوقائع الأساسية في التاريخ المُعاش ، وتترك الزؤان العالق ببعض الظواهر ، التي تكررت مئات المرات في التاريخ العربي والعراقي منذ اِنبثاق فجر البشرية ؟ .

إنَّ مسؤولية الشاعر سعدي يوسف مسؤولية وطنية كبيرة تتساوق مع قامته الشعرية والأدبية في هذا المجال ، ولرأيه المكتوب الوزن الكبير في صياغة الموقف الوطني العراقي عند مجموعة كبيرة من العراقيين ، إنْ لم نقل تبرئة نفسه من موبقات الماضي الذي حمل العديد من آرائه وأفكاره من خلال نصوص شعرية ونثرية متعددة حملتها العديد من الصفحات المطبوعة ، والمقابلات الصحفية ، أو نشرتها المجلات .

{5}

إنَّ مواقف الحزب السياسية الراهنة تجاه التطورات المختلفة التي يشهدها العراق ، **يفرض علينا الرجوع لتقليب صفحات الماضي** ، لاِستخلاص الدروس والعِبر من تاريخنا السياسي قبل الاِستفادة من ممارسات الآخرين ، ومحذرين من تكرار الخطأ التاريخي ، والتنبيه من خطورة اِستبدال الأولويات في العمل الوطني

العراقي الذي ينبغـــي للمجموع الوطني عدم الزوغان عنه ، وهو مقاومة المحتلين بالكلمة أو الموقف ، أو العمل الكفاحي ، إنْ لم يكن ضرورة تكامل كل هذه الأشكال النضالية في إطار الإخلاص الوطني للعراق : راهناً ومستقبلاً .

2003 / 5 / 6

باقر الصرّاف
كاتب عراقي مقيم في هولندا

المراجع

[1] ـ راجع كتابنا : العراق : كيف ننظر إليه ؟ ماذا ننتظر منه ؟ ، منشورات نداء الوطن ، أواسط عام 2002 ، الطبعة الثانية ، ص18 ــ 36 ، حيث ورد فيه الفصل الأول وتحت عنوان : شعاران لقضية التغيير السياسي في العراق ، إحتوى مناقشة مستفيضة لمفهومي الشعارين : الإسقاط أو الحوار في اللحظة القائمة آنذاك .

[2] ـ كما تورد ذلك توثيقياً المطبوعة التي أصدرها الكادر الحزبي في الحزب الشيوعي العراقي في مدينة مالمو السويدية ، والمرقمة بـ 15 والمؤرخة في 31 / 3 / 2002 .

[3] ـ راجع الكتاب الثاني من مؤلَف السيد حنّا بطاطو المكون من ثلاثة كتب ، إصدار مؤسسة الأبحاث العربية ، الطبعة العربية الأولى ، 1992 ، ص 183 ، الذي إستَلّ المؤلف نصوصه من تقرير فهد في إجتماع اللجنة المركزية المنعقدة في 17 أيار {مايو} 1942 الذي نشرته مطبوعة الشرارة التي كان الحزب يصدرها آنذاك ، العدد 10 لشهر أيار (مايو) 1942 ، ص 2 ـ 3 .

[4] ــ صدر ذلك البيان في جريدة ((القدس العربي)) الغرّاء في العدد 4334 بعنوان العراق . . . مستقبل الكلمة الحرة والتسامح والسلام الإجتماعي ، الذي كان أول جملة فيه : ((إستيقظنا أخيراً على ذلك الصباح الذي لا أجمل منه)) الذي يؤكد من خلاله على ((مساعدة الشعب العراقي للإحتلال)) مثلما تضمن البيان لغة نحوية ((سليمة)) لـ((كتّاب وصحفيين)) من قبيل ((فإننا مازلنا نثق بغالبية أبناء شعبنا ، وفي طليعته مفكرونا ومؤرخونا وأكاديميونا ومبدعونا)) فهنيئاً لهم على هذه اللغة التي تمكنت من تحويل المفعول به من منصوب إلى مرفوع ، فهذا هو الزمن الذي إنقلبت فيه كل المقاييس ، فبات الاحتلال يسمى تحرير ، والاستعمار العسكري ينعت بـ((جالب)) الحرية والديموقراطية .